حوادث دمشق اليومية

١١٥٤ — ١١٧٥ هـ

١٧٤١ — ١٧٦٢ م

جمعها : الشيخ أحمد البديرى الحلاق

نقحها : الشيخ محمد سعيد القاسمى

حققها ونشرها : الدكتور احمد عزت عبد الكريم

(من مطبوعات الجمعية المصرية للدراسات التاريخية . القاهرة ١٩٥٩)

رد على نقد

نشر الدكتور صلاح الدين المنجد كلمة فى مجلة معهد المخطوطات العربية (المجلد السادس . الجزءان الأول والثانى . مايو — نوفمبر ١٩٦٠) تناول فيها بالنقد نشرى لكتاب حوادث دمشق اليومية الذى جمعه احمد البديرى الحلاق الدمشقى ونقحه الشيخ محمد سعيد القاسمى من علماء دمشق فى القرن الماضى . والدكتور صلاح الدين المنجد (يحترف) منذ زمن نشر المخطوطات القديمة ، دون تخصص واضح ، وقد مكنته وظيفته السابقة فى معهد المخطوطات التابع لجامعة الدول العربية من المضى فى هذا العمل ، وكان الدكتور المنجد قد ذكر لى بعد ظهور الكتاب أن لديه بعض الملاحظات وأنه سيبعث بها إلى لأستعين بها إذا أتيح للكتاب أن يطبع للمرة الثانية ، ثم إذا بى أفاجأ بنشر هذه (الملاحظات) وغيرها فى مجلة المعهد المذكور ، وهى المجلة التى اتخذ الأستاذ المنجد عمله بها وسيلة للهجوم أو التجريح . ولست أود أن أقف عند العبارات القاسية التى شاء الاستاذ المنجد أن يوجهها إلى وإلى جهدى فى هذا الكتاب ، فليس من طبعى المهاترة ، وأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيبقى فى الأرض .

ولـكنى أود أن أعرض لأهم الملاحظات التى أوردها الأستاذ المنجد وبعض المبادىء التى قررها فى كلمته ، وألزم من يتصدون للتحقيق باتباعها :

أولا : أبدأ بملاحظة على الأستاذ المنجد نفسه وهى :

أنه بدأ كلمته بوصف البـديرى بأنه « طالب علم دمشقى . . . كان يعمل حلاقاً بدمشق فسمى البديرى الحلاق ، ولعله رأس أسرة الحلاق بدمشق التى تعرف اليوم بأسرة القاسمى . »

والواقع أن البـديرى لم يكن طالب علم ، لم يصف نفسه بهـذا الوصف ولم يصفه به أحد . وقد تحدثنا فى مقدمة الـكتاب عن نشأة البديرى وثقافته الدينية ، مما جعله يشب على تبجيل العلم والعلماء والمتصوفة وأرباب الـكرامات وقلنا إنه نهل من تلك الثقافة الصوفية التى كانت شائعة فى أيامه وانتمى إلى الطريقة السعدية وأصهر إلى أسرة الجباوية ، وكان أفرادها يتوارثون مشيخة هذه الطريقة . وكانت للبديرى أوراد وتسابيح ذكر بعضها فى كتابه . كما أن البديرى كان أديباً (شعبياً) رقيق الشعور نظم (المواليا) فى بعض الأحداث والرجال وعرف أدباء عصره واتصل بهم .

قلنا هذا عن البديرى وإن لم نستبعد أن يكون « قد اغتنم شيئاً من الفراغ فتردد على حلقات العلم فى مسجد بنى أمية وغيره من المساجد » وليس هذا بغريب فإنا نعلم أن الصلة كانت قوية بين طوائف العلماء والمتصوفة ، وكان أكثر علماء ذلك العصر يجمعون بين العلم والتصوف ، ومنهم من أضاف إلى هذا وذاك حرفة يحترفها من صناعة أو تجارة .

ثانياً : أخذ الأستاذ المنجد على أنى اعتمدت على النسختين المخطوطتين الموجودتين بالمـكتبة الظاهرية بدمشق والنسخة المخطوطة المودعة بمكتبة تيمور باشا بدار الـكتب المصرية بالقاهرة ، ثم علمت بوجود نسخة خطية أخرى قيل إنها

بخط المنقح بمكتبة أسرة القاسمى بدمشق ، وطلبت إلى أحد أصدقائى أن يتفضل بمراجعتها، ففعل،وخرجنا من المراجعة بأن هذه النسخة لا تكاد تختلف عن نسختى الظاهرية ونسخة تيمور .

وحقيقة الأمر — كما يعرف الدكتور المنجد حق المعرفة — أن الكتاب الأصلى الذى ألفه البديرى وجمع فيه أخباراً عما جرى بدمشق الشام فى السنوات التى ذكرناها من أواسط القرن الثامن عشر قد ضاع وأن المخطوط الموجود بين أيدينا — على اختلاف نسخه — هو « تنقيح » القاسمى لكتاب البديرى . وقد انصرف جهدنا — وجهد كثيرين من الباحثين — إلى البحث عن الكتاب الأصلى للبديرى فلم نوفق . فكان لا مفر إذا أردنا نشر هذا الكتاب القيم الذى يؤرخ لدمشق ويصف الحياة فيها فى ذلك العصر من الاعتماد على الكتاب فى صورته القائمة بعد أن تناوله قلم القاسمى بالتنقيح والتهذيب . وكان للدكتور المنجد الحق فى أن يأخذ علينا إهمالنا للنسخة الموجودة فى مكتبة القاسمى — وقيل إنها بخطه — لو أننا أهملناها.ولكنا علمنا بوجودها بعد أن أعددنا أكثر الكتاب للطبع . فطلبنا إلى صديقنا الأستاذ أبو الفرج العش محافظ المتحف الوطنى بدمشق أن يتوسط لدى السادة من أسرة القاسمى للحصول على هذه النسخة بالنسخ أو التصوير أو بأية وسيلة أخرى،فاعتذروا وأبوا إلا أن يطلع الأستاذ العش على هذه النسخة فى مكتبتهم . وأن للصديق الأستاذ أبو الفرج العش من كفاءته العلمية نزاهته وإخلاصه وصحبته للبديرى وكتابه معى هذه السنين الطوال ما يجعله موضع الثقة الكاملة فى هذه المراجعة التى قام بها لنسخة القاسمى ومقارنتها بنسختى الظاهرية .

وهكذا يتضح أننا لم نهمل الاطلاع على جميع نسخ الكتاب بدمشق والقاهرة ، وسواء اتخذنا إحدى هذه النسخ أو تلك أساساً للعمل فقد ثبت أن الاختلاف بينها جميعاً يسير لا يكاد يذكر .

ثالثا : راح الناقد يتسقط بعض الألفاظ من الكتاب ، لأبنية فى دمشق لم يحدد مكانها أو لتعبيرات مما جرت به ألسنة العامة فى دمشق فى ذلك العهد البعيد .

وقد بذلت جهدى أثناء إقامتى بدمشق نحو ثلاث سنوات (١٩٤٦ — ١٩٤٩) وعن طريق الاتصال المستمر ببعض الكرام من أبناء الشام بعد ذلك فى تحقيق وضبط وتفسير ما يحتاج إلى شىء من هذا ، والمطلع على الكتاب — إذا لم يكن متحاملا تحامل الأستاذ المنجد — سيجد من ذلك أمامه جهداً ضخماً واضحاً فى صفحاته التى زادت على المائتين ، عدا مقدمته العلمية الكبيرة وفهارسه . ويكفى أن أضع أمام القارىء مثالين لتحامل الدكتور المنجد وتجنيه :

الأول — أنه أخذ علينا إننا لم نحدد مكان سوق الدق بدمشق (ص ١٥٩) هذا مع أن سياق الكلام عنه فى النص يدل على هذا المكان ، كما قال الأستاذ المنجد نفسه . ولكن الأستاذ الناقد فاته أنه لا يقل أهمية عن تحديد مكان سوق الدق « وهو يكاد يكون محدداً فى النص) شرح معنى (الدق) نفسه وهو ما فعلنا » .

الثانى — إننا وصفنا (الفرش) بأنه يطلق فى الشام على وعاء من خشب (ص ١٢٥)، فجاء الدكتور المنجد وسفه شرحنا ، وقال إن الفرش : طبق واسع غير عميق من الخشب .

غير أن هناك ألفاظاً أخرى عامية ذهب الأستاذ المنجد فى تفسيرها مذاهب أخرى ، وهى مما تدق على أبناء الشام المحدثين أنفسهم، ويختلفون فيها.

رابعاً : أخذ علينا الأستاذ المنجد أننا فى شرحنا للألفاظ التركية لم نذكر المصادر التى اعتمدنا عليها فى هذا الشرح . وردنا على هذا أننا رجعنا فى ذلك إلى مصادر شتى ، من قواميس ومراجع تاريخية وأشخاص . . الخ ، ومما هو جدير بالذكر أن

كثيراً من هذه الألفاظ والمصطلحات لم تحتفظ (بتركيتها) وإنما دخلها كثير من التحريف (الكتابي) من ناحية و (الموضوعي) من ناحية أخرى، حتى لقد أصبح لها مدلولات تختلف كثيراً عن مدلولها الأصلي فشرحها لغوياً لا يفيد كثيراً.

عاب علينا الدكتور المنجد أننا « اعتمدنا » على كتاب Tresse فى الحج الشامى قائلا عنه إنه « ليس بثقة » . والواقع أننا لم (نعتمد) على هذا الكتاب ، إنما رجعنا إليه عند الحديث عن الحج الشامى وأخذنا عنه ، كما فعل المنجد نفسه فى بعض ما كتب ، وهو فى رأينا مرجع هام فى موضوعه .

سادساً : أخذ علينا الأستاذ المنجد بعض ملاحظات شكلية كعدم التزام أسلوب واحد فى وضع الأقواس وعدم الإشارة إلى مكان الآيات من كتاب الله الكريم ، إلى غير ذلك من الأمور الشكلية التى يصرف فيها (محترفو) نشر المخطوطات القديمة جهدهم،دون اهتمام كبير بلب الكتاب وموضوعه . وليس هذا من العمل العلمى فى شىء .

سابعاً : وأعجب العجب ما ختم به الدكتور صلاح الدين المنجد كلمته من تقرير مبدأ خطير ، إذ نصب نفسه قيماً على المخطوطات وحارسا على باب (جنتها) يمنح من يشاء ويمنع عمن يشاء ، إذ قال فى لهجة ملؤها الاستعلاء : « وقد كنا نادينا دائماً أن لا يحقق العلماء المؤرخون إلا المخطوطات التى تتصل ببلادهم التى يعيشون فيها» . أما وقد خالفنا من أمره وتصدينا لنشر كتاب فى تاريخ دمشق ، فهذه — فى رأيه — كبيرة الكبائر لن يشفع لنا عنها الجهد الذى بذلناه فى تحقيق هذا الكتاب وضبط وقائعه والتمهيد له بمقدمة علمية طويلة عن العالم العربى — وسورية خاصة — فى العهد العثمانى، وفى القرن الثامن عشر على وجه الخصوص ، ولن يشفع لنا عنها إقامتنا فى دمشق نحو ثلاث سنوات واتصالنا المستمر بكثير من كرام أهلها ، ولن يشفع لنا عنها حبنا لهذه المدينة الجميلة الخالدة ، واعتبارنا إياها بلدنا فعلا ، لنا فيها مثل ما للمنجد وسواه .

ولـكن ليقلها الأستاذ المنجد صراحة . لقد ساءه أن ينشر أحد غيره — سواء أكان من أبناء دمشق أم من أبناء القاهرة — كتاب البديرى، وقد هم هو بنشره منذ سنوات ، ولـكنه لم يمض فى العمل إلى نهايته[1] .

والله يهدينا سواء السبيل .

أحمد عزت عبد الكريم

---

(١) للأستاذ المنجد غرام (بحجز) المخطوطات لنفسه حتى يصرف عنها الباحثين، ومن ذلك أنه علم بعزم بعض الباحثين على نشر (كناش المحاسى) فما كان منه إلا أن نشر جانباً كبيراً من هذا الكناش (بعبله) فى مجلة معهد المخطوطات ، دون أى تحقيق أو ضبط مكتفيا بالوعد بتقديم دراسة مفصلة له « فى وقت قريب » .

انبــاء ومؤتمرات